شجاعة حسان بن ثابت

بين الشك واليقين

د. عبد الله فتحي الظاهر(*)

في التاريخ صفحات ما تزال بحاجة إلى تحقيق، صفحات غامضات وأخر متناقضات، وصفحات فيها افتعال بيّن لذي بصر وبصيرة، ونجد في بعضها تلفيقاً لأحداث، احسن الرواة تخريجها، حتى انك حين تقرأ الخبر لا تشعر بالافتعال فيه، وفي تلك الصفحات الغوامض أو ذوات الأخبار غير الدقيقة كم من حقائق ضاعت، وكم من وقائع زوّرت، وكم من مواقف ذكر الضدُّ منها حتى كادت الحقيقة ان تموت وبقي في بعضها شاهد عليها غير انه بحاجة إلى بعثه، وليس من شك ان وراء ذلك كله دوافعَ ومسبباتٍ ولعل من الدوافع إلى ذلك التزوير أو تعمّد التعمية والتشويش، رفع شأن بعض الدخلاء، واختلاق مواقف مشرّفة لهم، أو كرامة مزعومة لأسلافهم، وقد تكون الدوافع الحطّ من شان أناس بتجريدهم من كل فضيلة أو بالبحث عن ثغرة تكون المدخل للطعن المباشر أو غير المباشر عليهم، وقد تعزى مسببات الاختلاق والطعن المقصود أو غير المقصود إلى بعد الزمن أو بعد الحدث عن زمن التدوين، والى اختلاط الأحداث والوقائع في الذاكرة، وقد يأتي هذا البعد على الحقيقة أو هكذا أرادوا لها، أو ان التفاصيل قد تنسى لذلك، وبين الاختلاق

(*) كلية الآداب ـ رئيس قسم اللغة العربية / جامعة الموصل.

والطعن وبعد الأحداث عن زمن التدوين ودخول الأهواء الناتجة عن الملل والنحل والمذاهب...

بين هذا كله ضاعت حقائق كثيرة وتداخلت الأباطيل بالحقائق، وبذلك كان التجني على التاريخ وأحداثه وشخصياته وعلى الحقائق كبيراً "ولقد كانت عمليات التشويه واختلاق المواقف والأحداث في حيوات جماعات من عظماء الرجال إحدى قنوات الدس والطعن، فقد طال ذلك أعدادا من الصحابة الكرام والتابعين والقادة والمفكرين وكثيرين من ذوي الشأن في هذه الأمة وفي كل ميدان، بل لقد طالت ألسنتهم وأقلامهم الحياة النبوية الشريفة وكثيراً من الأنبياء عليهم السلام" (١) وبهذا مُني التاريخ وتاريخ الأدب والفقه والسِير والحديث الشريف بكثير من الأخبار المفتعلة، التي تسلل بعضها الى ذاكرات بعض المؤرخين الانتهازيين، وقد يكون الناقلُ لهذه الأخبار بعضُ الرواة الأبرياء أو غيرُ المحققين ممن نسخ من المصنفين تلك الأخبار دونما تمعن أو درس وتمحيص، لذلك كان جديراً بنا التثبت من تلك الروايات وتحقيقها وإعادة النظر فيها، وان لا يكون لقدم النص أو الرواية قدسية تمنعنا من الشك بصدقها، فكثيراً ما يصعب على بعض الناس أحيانا ان يصدقوا إمكانية الشك في معلومات الكتاب الفلاني أو أقوال فلان من الرواة، بل يصعب على بعضهم تصديق براءة صحابي من تهمة ما أو عمل قام به وهو على الحقيقة لم يقم به، ومن هنا وجب ان تقوم الدراسات على أسس علمية مجردة، بعيدة عن التأثر بالعوامل الخارجية أو النزاعات الشخصية أو العاطفية، وحسان بن ثابت واحد ممن طالتهم يد الافتراء، فذكرتهم بعض كتب التاريخ وتاريخ الأدب بتهم هم منها براء، فقد لاكت الألسن هذا الصحابي الجليل فوصفته بالجبن في غير مصدر،

(١) خمريات أبي محجن الثقفي بين الشك واليقين، د. عبد الله الظاهر، مجلة آداب الرافدين ع ٣٥.

وراح بعض الباحثين يدافع عنه بأنه لا يقوى على خوض المعارك لأنه لم يألف حياة الأعراب في جاهليتهم، وانه بما فطر عليه من إحساس وذوق ورقة، وبما اكسبه الإسلام من شعور ورحمة ورأفة كان مثالاً بارزاً لرهافة الإحساس والرحمة والرأفة، حتى انه لم يرغب في ان يسلب مشركاً. وهو بدفاعه هذا يثبت صفة الجبن على حسان من حيث لا يريد، ثم يمضي الباحث في الدفاع عن الصحابي الشاعر فينقل خبر حسان وصفية رضي الله عنها واليهودي يوم الخندق في حصن فارع[٢].

ويشير باحث آخر إلى الرواية المنسوبة إلى صفية ويحاول تبرير موقف حسان بقوله: "فهل الخوف يعتبر جبناً؟ ألا يمكننا ان نقول ان هناك علّة أخرى تمنعه من الاشتراك في الحرب؟ قد يكون السن هو السبب، أو ان هناك علّة أخرى[٣]" ثم ينقل قصة إصابته بأكحله قبل الإسلام، بل ان بعض المؤرخين يصرح بوصفه بالجبن وانه لم يجرؤ على رؤية القتال، معتمداً في ذلك روايتين تتحدثان عن واقعتين كان حسان رضي الله عنه فيهما موصوفاً بالخوّر، وممن حاول تبرير وصفه بالجبن شارح ديوانه عبد الرحمن البرقوقي الذي يقول: "كان حسان جباناً بحق بل كان الجبنَ ماثلاً، وليس ذلك مما يعاب به حسب. أما جبنه فقد علمت انه لم يخض حرباً قط... وتقول صفية[٤]" وينقل خبر صفية والحصن الذي سيأتي ذكره، ثم ينقل خبر بيتي الشعر اللذين يزعمون ان النبي صلى الله عليه وسلم ضحك من حسان عند سماعهما... فيعقب قائلاً: "وهل ادعى للضحك من رجل

(٢) ينظر شاعر النبي ، حسان بن ثابت الأنصاري، عبد الله أنيس الطباع، بيروت ١٩٥٥، ص٣٤.

(٣) حسان بن ثابت، شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم د. سيد حنفي حسنين ٣٧ ـ ٣٨.

(٤) شرح ديوان حسان، ٢١. م.ن.

عرف بالغاية القصوى من الجبن[٥]" ثم يعلل سبب جبنة بأنه كان منذ قذف صفوان بن المعطل بحادث الإفك واعترضه صفوان بسيفه أدركه الجبن، يقول: "وانما أدرك حسان هذا الجبن منذ ضربه صفوان بن المعطل بالسيف... وبعد ان ضربه ابن المعطل ذهبا إلى سيدنا رسول الله واخبراه بما حصل، فقال السيد الأمين لحسان: يا حسان أتثفس عليّ إسلام قومي؟ ثم رضي عنه ووهب له سيرين القبطية أخت مارية..."[٦]. ثم يعرض عن هذا وذاك فيقول: "وهذه القصة وان كانت صحيحة لا تدل على شيء مما قالوا وإنما جبن حسان سببته له شاعريته[٧]"

أما اقدم ما نعلم من مصادر ورد فيها الحديث عن جسان ومسألة اتهامه بالجبن فسيرة الرسول صلى الله عيه وسلم لابن هشام التي كانت مصدراً لما جاء بعدها من المصادر فنقلت عنها رواياتها، غير ان بعضها حمل إضافات ليس لها اصل في النص الأساس، كرواية حسان هذه التي نحققها في هذا البحث، سننقلها وننقل رواية الشعر والشعراء والأغاني ثم نذكر بعض ما اعتمده المؤرخون من أدلة عن اتهام حسان رضي الله عنه بالجبن ثم نقف على الحقيقة ان شاء الله.

أورد ابن هشام في معرض الحديث عن يوم الخندق قصة رويت عن موقف من مواقف حسان التي اتهم بسببها بالجبن، قال "قال ابن اسحق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: كانت صفية بنت عبد المطلب في فارع (حصن حسان بن ثابت) قالت: وكان حسان بن ثابت معنا فيه مع النساء والصبيان، فمر بنا رجل من يهود، يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينهما

(٥) م. ن، ٢٢.

(٦) م. ن.

(٧) م. ن. ٢٣.

وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون في نحور عدوهم، لا يستطيعون ان ينصرفوا عنهم الينا إن أتانا آتٍ. قالت: قلت: يا حسان، ان هذا اليهودي كما ترى يُطيف بالحصن، وإني والله ما آمنة ان يدل على عوراتنا من وراءنا من يهود، وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانزل إليه فأقتله، قال: يغفر الله لكِ يا بنت عبد المطلب والله لقد عرفت ما انا بصاحب هذا، قالت: فلما قال ذلك ولم أر عنده شيئاً، احتجزت، ثم أخذت عموداً ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته، قالت: فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن. فقلت، يا حسان انزل إليه فاسلبه فانه لم يمنعني من سلبه الا انه رجل قال: مالي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب[٨]" وقد أورد ابن قتيبة (ت٢٧٦) في ترجمته لحسان في المعارف والشعر والشعراء ذِكرَه مثبتاً صفة الجبن فيه فقال: "وهو متقدم الإسلام، الا انه لم يشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم مشهداً لأنه كان جباناً[٩]" وأورد صاحب الأغاني نصين أحدهما يعتمد النص السابق، ذكره بلفظه كاملا، والثاني لا يقل طعنا وثلباً له عن خبر إحجامه عن سلب اليهودي بعد الامتناع عن قتله، قال أبو الفرج: "كان ابن الزبير يحدث انه كان في فارع – أطم حسان بن ثابت – مع النساء يوم الخندق ومعهم عمر بن أبي سلمة، قال ابن الزبير ومعنا حسان بن ثابت ضارباً وتداً في آخر الأطم، فاذا حمل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين حمل على الوتد، وإذا اقبل المشركون انحاز عن الوتد كأنه يقاتل قِرناً، يتشبه بهم كأنه يُري أنه مجاهد حين

(٨) السيرة النبوية لابن هشام، طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، حققها وضبطها وشرحها، مصطفى السقا وإبراهيم الابياري وعبد الحفيظ الشلبي، القاهرة ١٩٥٥، ٢/ ١٢٩.

(٩) الشعر والشعراء، حققه احمد محمد شاكر، طبع دار المعارف ١/ ٣٠٥.

جبن. قال ابن الزبير: وجاء يهودي يرتقي الحصن، فقالت له صفية: اعطني السيف، فأعطاها، فلما ارتقى اليهودي ضربته حتى قتلته ثم احتزت رأسه فأعطته حسان وقالت، طوّح به فان الرجل أقوى واشد رمية من المرأة، تريد أن ترعب به أصحابه(١٠)" أما دليل المؤرخين الآخر على اتهام حسان بالجبن الذي يعززون به ما اعتمدوه من نصوص تتهمه بالجبن، فهو عدم عثورهم على ذكر له في كتب التاريخ والمغازي والسير بين أسماء من شهد معارك الجهاد، ومما يذكر لبعض المؤرخين والباحثين أنهم آثروا عدم المجاهرة باتهامه بالجبن فسكتوا عن الدفاع عنه احتراما لمقامه عند رسول الله تعالى فهو شاعره المقرّب المدافع عن الإسلام والمسلمين بلسانه.

ان هذه النصوص والقرائن التي ذكرناها هي التي اعتمدها الباحثون والمؤرخون في مسالة اتهام حسان بن ثابت بالجبن وهي نفسها التي تناقلتها المصادر اللاحقة إلى يومنا هذا، بين مصنف مضيف ما يمليه خياله وآخر مختصر ما يراه يقدم الصورة أدقّ، أو مشير إليها إشارة عابرة، وكل أولئك لا يخرج عن دائرة وقائعها الواردة في المصدر الأول. وهاكم عناصر الاتهام ملخصة بالآتي:

١. ان حسان بن ثابت لم يشارك في معارك الجهاد منذ دخل في الإسلام.
٢. امتناعه عن قتل اليهودي في حصن فارع يوم الخندق.
٣. ادعاؤه البطولة في الحصن حين مهاجمته وتداً على انه عدو (كما في نص الأغاني الثاني).

(١٠) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، طبعة دار الكتب المصرية ط١ القاهرة ١٩٣١ ١٦٤/٤.

٤. حين قرأ حسان قصيدته (باتت لميس) واتى إلى ذكر بيتين يفاخر فيهما بشجاعته أبتسم النبي صلى الله عليه وسلم فظن ان النبي يضحك منه، والبيتان هما[١١]:

لقد غدوت أمام القوم منتطقاً بصارمٍ مثلِ لونِ الملح قطّاعِ

تحفزُ عنّي نجادَ السيفِ سابغَةٌ فضفاضةٌ مِثلُ لونِ النّهي بالقاعِ

وبعد عرض أدلة الاتهام نأتي إلى مناقشتها ومن ثم نحاول بحث الظروف المحيطة بالشاعر. ولننظر في أدلة متهميه بالجبن فنناقشها في الآتي:

ان أدلتهم إلى جبن حسان هو عدم مشاركته المسلمين حروبهم بالسيف وانه لم يقتل اليهودي يوم كان في الحصن وان النبي ضحك منه ذات يوم، لذلك فهو جبان.

ان الجبن ليس عذراً من الأعذار التي اقرها الإسلام للمقاتل بالقعود عن القتال ذلك ان الأعذار الشرعية واضحة في قوله تعالى(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا)[١٢].

هذه حدود الإعفاء من القتال، ولم يكن حسان أعمى ولم يكن اعرج، ولكن هل له حجة من مرض مشروعه؟ ، وللبحث عن هذا العذر تصفحنا تاريخ حسان في بعض مظانه فوجدنا خبراً في الأغاني يقول: "قال الزبير: حدثني عمي عن الواقدي، قال: كان اكحل حسان قد قطع، فلم يكن يضرب به[١٣]" والأكحل عرق في وسط الذراع، قطعُه يصيب الذراع بالشلل، وهو بهذا يعتمد اعتراف حسان بن

(١١) شرح ديوانه، ضبطه وصححه عبد الرحمن البرقوقي، دار الاندلس. بيروت ص ٣١٣..

(١٢) سورة الفتح، ١٧.

(١٣) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ١٦٦/٤.

ثابت ببيت في شعره يؤكد إصابته بذراعه قبل إسلامه، ولعل في هذا مفتاح السر، فالرجل مريض وعلته في الذراع[١٤] الضاربة، ولعل في خبر الواقدي (فلم يكن يضرب به)، ما يؤكد كون القوة في الذراع، فإذا فقدت لم يبق للسيف دور يذكر، لذا فمن الطبيعي ان لا يشارك حسان المسلمين القتال غير انه يكون معهم ولكن بين النساء (في أطم) مثلاً أو في الخلفيات (القدمات الإدارية) كما يطلق عليها في المصطلح العسكري الحديث. يقول الواقدي مدافعاً عن حسان وعن تهمة الجبن الموجه إليه: "ان قومه كانوا يدفعون ان يكون جباناً، ولكنه أقعده الحرب ان أكحله قد قطع فذهب منه العمل في الحرب"[١٥]، ولنقرأ قول حسان نفسه يذكر سابقته في القتال وشيخوخته والعلة التي ألمت بذراعه:

أضر بجسمي مرّ[١٦] الدهور وخان قِراعَ يدي الأكحلُ

وقد كنت أشهد وقع الحروب ويحمرّ في كفّيَ المنصلُ

فهل من معرّة لمريض يشارك قومه المسير إلى الجهاد وتمنعه وشيخوخته وعلة فيه من حوض غمار المعركة؟! وهل في تخلف شيخ معلول عن خوض المعركة دليل على خَوَرٍ أو جبن؟ ونحن نعلم انه – كما أقرّ هو – كان صاحب سيف وصولات في أيام شبابه وبخاصة إبان معارك الخزرج قبيلته ضد قبيلة الاوس، علماً ان الدليل الأول على اتهامه بالجبن يناقض خبر ابن الزبير الذي يرسم صورة لحسان وهو يهجم على وتد فِعلَ بطل يضرب قرناً له في ساحة المعركة كراً وفراً، غير مكتفٍ بذلك التصوير زراية له ومزيداً من سَفَه، بل راح

(١٤) سيأتي ذكره لاحقاً.

(١٥) تاريخ ابن عساكر ١٢٦/٤.

(١٦) ديوان بتحقيق سيد حنفي حسنين.

يفسر هذا الفعل المزعوم بجبن كان في الرجل! ثم ان هذه الرواية ان صحت فانها توحي من طرف ان الرجل لولا علة فيه لكان محارباً ضارباً، ولنسأل أنفسنا: ألا يوحي مكثه في (فارع) انه كان معذوراً عن قتل اليهودي لما فيه من علة؟ وثمة عذر مهم آخر يضاف إلى علة ذراعه، هي سنة، فقد روي ان حسان يوم دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة المنورة كان في الستين، أي انه كان يوم الخندق في الخامسة والستين، وليس بغريب ان يكون حسان في جماعة العاجزين عن مباشرة القتال وهو في سن متقدمة على الرغم من ان كثيرين ممن جاوزوا هذه السن لم تمنعهم شيخوختهم عن ولوج القتال، وعلى العموم فان الغالب على شيخ هذه سنّه ان يعذر.

ان ما يؤكد كبر سنه عند إسلامه عدة روايات منها قصة له مع أعشى بكر في خمارة بالشام يقول مفادها ان حسان بن ثابت في الجاهلية دخل بيت خمار ومعه الأعشى فاشتريا خمراً وشربا، فنام حسان ثم انتبه فسمع الأعشى يقول للخمار: كرة الشيخ الغُرْمَ؛ فتركه حسان حتى نام ثم اشترى خمر الخمار كلها ثم سكبها في البيت حتى سالت تحت الأعشى، فعلم انه سمع كلامه فاعتذر إليه(١٧) فالرواية هذه تؤكد شيخوخته منذ أيام الجاهلية لقول الأعشى: كرة الشيخ الغُرْمَ فكيف به بعد عدة سنوات من إسلامه لا يكون اشد شيخوخة وعجزاً عن مباشرة القتال؟ وعلى هذا فان قول حسان لصفية بنت عبد المطلب: "يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا" – حين طلبت إليه قتل اليهودي – يكون عذراً له في امتناعه عن القتال مع المقاتلين لا دليلاً على صحة اتهامه بالجبن، فكأنه يقول لصفية لقد عرفت عجزي عن القتال لشيخوختي ولقطع أكحلي.

(١٧) ينظر الأغاني ١٦٧/٤ وشرح ديوانه ٢٠٠و ٢٠١.

اما الروايتان اللتان ينقلهما أبو الفرج عن عباد بن عبد الله بن الزبير وهو حفيد ابنها عبد الله وعن عبد الله حفيدها، فمختلفتان؛ أما الأولى ففي إسنادها نقص اي ان حلقة أو حلقتين مفقودتان من السلسلة، لان راويتها عباد يرفعها إلى صفية ولم يذكر عمن نقل قوله، ومن هو المقول له هذا الخبر، ذلك ان عبد الله[١٨] أباه كان يوم الخندق ابن خمس سنين وكانت صفية في السبعين من العمر والفارق بين الاثنين كبيرٌ جداً، ونحن نشك في صحة الخبر المنقطع[١٩]، ولقد رد عبد الرحمن السهيلي في الروض الآنف مسالة اتهام حسان بالجبن معتمداً كون الحديث ضعيفاً منقطع الإسناد فقال: "ومجمل هذا الحديث عند الناس على ان حسان كان جباناً شديد الجبن، وقد رفع هذا بعض العلماء وأنكره وذلك انه حديث منقطع الإسناد[٢٠]" ويعود إلى سبب يراه مقبولاً فيقول: "فدل هذا على ضعف حديث ابن إسحاق وان صح فلعل حسان[٢١]ان يكون معتلاً في ذلك اليوم بعلة منعته من شهود القتال"[٢٢]، وينقل ابن عساكر القصة عن السيرة ثم يورد قول ابن الكلبي: "ولم يكن الجبن من عادة حسان بل كان لسنا شجاعاً فإصابته علة أحدثت فيه الجبن فكان بعد ذلك لا يقدر ان ينظر إلى قتال ولا شهده[٢٣]"ولعله يعني بـ (أحدثت فيه الجبن) ان حالة نفسية ألمت به وهذا لا يعد جبناً، وما دمنا في حدود النص فلنعد

(١٨) يعد عبد الله ابن الزبير أول مولود للمسلمين بعد الهجرة.

(١٩) الخبر المنقطع: ما سقط من سلسلة إسناده واحد قبل الصحابي وكذا من مكانين او اكثر، ومن العلماء من جعله بحكم المقطوع وهو ما جاء عن تابعي وليس بحجة لانه واحد من أقسام الضعيف.

(٢٠) الروض الآنف ٢/٢٠٠.

(٢١) ورد في النص الاسم ممنوعاً من الصرف ولا نرى له وجهاً.

(٢٢) م. ن.

(٢٣) تاريخ ابن عساكر ٤/١٤٠.

قراءة ما نسب إلى صفية من كلام "فمر بنا رجل من يهود، فجعل يطيف بالحصن"، لاشك اننا نعلم ان المدينة كانت محصنة محمية، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جعل لها ثمانية أبواب وأوقف على كل باب رجلين من المهاجرين والأنصار يحفظانه، ولهذا كانت المدينة ممتنعة على الأعداء، علماً ان الخندق كان بعيداً عن المدينة بما يقارب أربعة أميال ويؤكد بعده عن المدينة قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا)[٢٤] فقد دلت كلمة (ارجعوا) على بعد الديار عن ارض المعركة، ويدعم ذلك استئذان فريق من أهل المدينة النبي صلى الله عليه وسلم للعودة إلى بيوتهم، فالخندق إذا بعيد عن المدينة وللمدينة حراس وعلى المدينة رجل عامل للنبي صلى الله عليه وسلم هو عبدالله بن أم مكتوم، أما الحصن فلم يكن خارج الخندق لأنه لو كان كذلك لما وضع النبي صلى الله عليه وسلم النسوة والأطفال فيه! فان كان في المدينة دون الخندق - وهو كذلك - فكيف يجرؤ يهودي ان يطيف به وقد علم ان مكانه مجتمع المسلمين، ولعل قصة اليهودي كلها غير صحيحة، وما ذكرنا من أسباب يؤكد ذلك وضعها وأكد شيء في قولنا ان الحديث الذي روى القصة حديث منقطع ولا يعول عليه إذا عارضه عارض.

ان يوم الخندق لم يكن فيه قتال وسجال وكر وفر، والرواية الثانية تؤكد حدوث قتال "فاذا حمل أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم على المشركين حمل على الوتد وإذا اقبل المشركون انحاز عن الوتد".

(٢٤) سورة الأحزاب، الآية ١٣.

إن كتب السير وكتب التاريخ والتراجم تؤكد انه لم يحصل يوم الخندق الا مبارزة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعمرو بن عبد ود العامري حين جاوز الخندق ومعه بعض فرسان قريش، وقد قتل عمرو هذا يومها، وحدث كذلك ان قصّرت فرس نوفل بن عبد العزى به فسقط في الخندق وهو فار فقتله الامام علي رضي الله عنه[٢٥]، فلم تقع حرب بل مناوشات بالسهام والنبال، قال ابن إسحاق: "فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم واقام عليه المشركون بضعا وعشرين ليلة... لم تكن بينهم حرب الا الرّمْيا بالنبل والحصار[٢٦]".

أما مسألة مبارزة حسان الوتد فلا نصيب لها من الصحة لان الحصن – كما بيّنا – يبعد عن موقع المعركة اكثر من فرسخين، فلا يصح مع هذا البعد ان يرى حسان مجريات القتال فيقلد الأبطال في الكرّ والفرّ مع اليقين انه لم يكن هناك – كما أسلفنا – كرّ و فرّ على مستوى الهجوم بين الفريقين المتقاتلين، أما إسناد قصة تبسم الرسول من قول حسان مفتخراً فضعيف، لان الزبير بن بكار يرويها سمعاً عن مجهول، ثم ان لنا ان نسأل عمّن نقل الخبر عن حسان وانه ظن بالرسول يضحك منه (ان صحت الرواية) وكيف يضحك منه وهو الذي كان يدعو له بالنصر والتأييد وهو شاعره المقرب المعتمد الذي مدح النبيُّ صلى الله عليه وسلم شعرُه فقال: (لهذا أشدُّ عليهم مِنْ وَقْع النَبل)؟!![٢٧]

وبعد فلسنا ندعي ان حساناً كان شجاعاً وانما نجد ان أدلة اتهامه بالجبن غير كافية لوصفه به. إن حساناً شاعر الرسول والمدافع عن الإسلام ليس من شك ان

---

(٢٥) السيرة النبوية ٢٢١/٢.

(٢٦) السيرة ٣٢٣/٢.

(٢٧) تاريخ دمشق ١٢٩/٤ وينظر البيان والتبيين ٢٧٣/١ ولقد اثنى النبي على شعر حسان والشعراء المسلمين، ينظر مسند احمد ٤٦٠/٣.

يكون له أعداء وخصومات فقد صادق وعادى وهاجم وهوجم وكان لسانه غير عادي بين الناس، وكثيراً ما فاخر به، ونحن نعلم انه كان شاعر الخزرج قبل الإسلام في صراعهم مع الاوس وكان له مع قيس بن الخطيم شاعر الاوس جولات ومواقف، وكان في الإسلام لسان حال الدعوة المجاهد ضد أعدائها بما اوتيه من ملكة القول الفاعل المتمكن وبخاصة حين أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى ابي بكر يأخذ عنه معايب القوم ومثالبهم وكان له بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم جولات في خلافات وقعت، مناصراً ومخاصماً، ولا شك ان لسانه هو الذي جلب له خصومات، فقد اوجع به قيسَ بن الخطيم وضرارَ بن الخطاب الفهري وعبد الله بن الزبعري وأبا سفيان بن الحارث وعمرو بن العاص والنجاشي وأبا قيس بن الاسلت الشاعر وهبيرة بن أبي وهب والوليد بن المغيرة وابن جوال الثعلبي ومخرمة بن المطلب، وقبائل منها جذام وهذيل وهوزان وغيرها، ولقد اغلظ لهم القول كما فعلوا هم، لكنه كان ابعد أثراً منهم جميعاً واشد سلاطة، ولذلك كان الحقد عليه اشد واعمق حتى ان بعضهم استجار بالرسول صلى الله عليه وسلم من لسانه الذلاق فهذا الحارث بن عوف يستجير بالنبي فيقول: "لو مزج البحر بشعره لمزجه"[٢٨] ومن كاماته الهاجية قوله يخاطب عبد الله بن الزبعرى ويفاخر بشجاعته[٢٩]

لقد علمتْ بنو النجار أني ... أذودُ عن العشيرةِ بالحسام

وقد أبقيت في سهم علوبا ... إلى يوم التغابن والخصام

فلا تفخرْ فقد غلبت قديماً ... عليك مشابهٌ من آل حام

(٢٨) الأغاني ٤/١٥٥.

(٢٩) شرح ديوانه ٤٥٩.

ومنها مفاخرته بشجاعته[٣٠]

ألا أبلغ المستسمعين بوقعةٍ تخفُّ لها شُمطُ النساءِ القواعدُ

ويعلم أكفائي من الناس أنني أنا الفارسُ الحامي الدِّمارَ المناجدُ

وما وجدَ الأعداء فيّ غميزةً ولا طاف لي منهم بوحشيَ صائدُ

ومنها قوله يخاطب خصمه الألدّ بن الخطيم الأوسي على إثر قتال دار بين الخزرج والأوس[٣١]:

لعمرُ أبيكَ الخير يا شعثُ ما نبا عليّ لساني في الخطوب ولايدي

لساني وسيفي صارمان كلاهما ويبلغُ ما لا يبلغُ السيفُ مذودي

وهناك قصائد كثيرة مبثوثة في ديوانه تحكى فعاله في عدوه وتقص مفاخره وتصف جولاته[٣٢] وأخبار عداواته الكثيرة، فها هو ذا يختصر رحلة عداواته الطويلة ببيت واحد فيقول[٣٣]:

وإن لم يزلْ لي منذُ أدركت كاشحٌ عدوٌّ أقاسيه وآخرُ حاسدُ

ولقد أكد ابن سلام ان كثيرين هم الذين تحاملوا عليه فلفقوا ما شاؤوا وحملوا عليه ما أرادوا فهو يقول: " قد حمل عليه ما لم يحمل على أحد لمّا تعاضهت[٣٤]

---

(٣٠) م.ن ١٦٩.

(٣١) م.ن ١٨٣.

(٣٢) ينظر ديوانه بتحقيق سيد حنفي حسنين وشرح ديوانه للبرقوقي والسيرة النبوية وكتب التراجم وسواها للوقوف على ذلك.

(٣٣) شرح ديوانه ١٧٠.

(٣٤) تعاضهت: تشاتمت.

قريش واستتبت[٣٥]»[٣٦] فالوقائع تؤكد حصول افتراء وتجنّ فوضعوا عليه أشعاراً ولفقوا عليه تهماً، ولو ذهبنا إلى دليل مهم هو ان حسان على كثرة خصومه، لم نجد شاعراً واحداً هجاه فيما هُجي بصفة الجبن وهي خصلة شائنة، والشعراء يبتدعون المعايب فيلصقونها بمهجوّيهم، وبخاصة إذا كان الخصم عنيداً؟ يقول الأصمعي: الدليل على ان حسان لم يكن جباناً أنه كان يهاجي خلقاً فلم يعيره أحد منهم بالجبن[٣٧] فهذا أبو سفيان بن الحارث الذي اصطرع زمناً مع حسان يقول[٣٨]:

أبوك أبو سوء وخالك مثله ولست بخير من أبيك وخالكا

وإن أحق الناس ألا تلومه على اللؤم مَنْ ألقى أباه كذلكا

ويقول:

ألا من مبلغٌ حسان عني خلفتُ أبي ولم تَخْلُف أباكَ

فيجيبه حسان[٣٩]

لأن أبي خلافتُهُ شديدٌ وأن أباك مثلُكَ ما عداكَ

فهو يفاخر بأن أباه من السمو بحيث لا يرتقي إليه، فليس هناك من يغني غناءه ويسد مسده، ويقول: أما أنت فان أباك لم يعدُك ولم يمتز عنك بشيء ومن ثم يسد مسده أي إنسان مهما حقر. ولقد مرت بنا بعض سهامه التي سددها في نحور أعدائه فلم يجبه واحد منهم ببيت شعر أو كلمة تصفه بالجبن، ونحن لا نؤكد

(٣٥) استبت: تبادلت السباب.

(٣٦) طبقات الشعراء ص٨٠.

(٣٧) ينظر تاريخ ابن عساكر ١٢٦/٤.

(٣٨) طبقات بن سلام ٩٠.

(٣٩) شرح ديوانه ٣٥٤.

شجاعة حسان من كلماته التي وصف بها نفسه لان هذا ليس بدليل قاطع، غير انا لو نظرنا إلى بعض ما يتخلل أشعاره تلك من صدق عاطفة، حكمنا بصدقة، كالذي في بيته:

لعمر أبيك الخير يا شعثُ ما نبا عليّ لساني في الخطوب ولا يدي

فشعثاء هذه امرأة كان يشبب بها دائماً في شعره وكانت قد تيمتْهُ فراح يقدم لها استعطافاً مؤكداً بقسم حار يفصح به عن حقيقة حبة بلهجة عاطفية تنضخ ألماً وتحرقاً ويدفع عنه ما تجنّي به واشوه عليه فظلموه، وهو مما وصفوه به براء، لذلك كان استصراخ وجدانها بتلك الحرارة الصادقة ليحملها على تصديقه، ولذلك إني لأجد في بيته هذا صدق مدّعاه، فلعله كان كذلك غير خوّار ولا هزيلاً، ولو كان ذلك التجني صادراً عن غير شعثاء فلا خير فيه لأنه أعرف بنفسه وهو قائل(٤٠):

وإن امرءاً يمسي ويصبح سالماً من الناس الا ما جنى لسعيدُ

وبعد فهذا هو حسان كما قرأته مستعيناً بشعره وببعض معطيات سيرة حياته وظروفها قبل إسلامه وبعد ان دخل في الإسلام وصار شاعر النبي والإسلام. وما قرأناه من اعترافاته الصادقة بأثر سيفه ولسانه في خصمه، وحسبه فخراً أنه لم يتهم في أشعار خصومه بتهمة الجبن، ومن ذلك نقدر أن لحسان سابقاً معروفاً في وقائع قومه ضد أعدائه، وأنه لو كان جباناً لما اختصه النبي لنفسه ولما آثره على سواه من فطاحل الشعراء وشاهد الأثر يقول: ما اجتمع الجبن والأيمان في قلب واحد، وليس من المعقول ان يتخذ النبي صلى الله عليه وسلم في جملة صحابته جبناء أو خوارين وهم أبطال الإسلام.

(٤٠) شرح ديوانه، المقدمة ٤٠.